

2016

## دراسة نقدية وقراءة في كتاب محمد دحمان-الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب

الكبير عطوف

جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير  
e.atouf@uiz.ac.ma

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [History Commons](#), and the [Sociology Commons](#)

### Recommended Citation

عطوف، الكبير (2016) "دراسة نقدية وقراءة في كتاب محمد دحمان-الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب", *Dirassat*: Vol. 19 : No. 20 , Article 8.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol19/iss20/8>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact [rakan@aarj.edu.jo](mailto:rakan@aarj.edu.jo), [marah@aarj.edu.jo](mailto:marah@aarj.edu.jo), [u.murad@aarj.edu.jo](mailto:u.murad@aarj.edu.jo).

---

## دراسة نقدية وقراءة في كتاب محمد دحمان-الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب

### Cover Page Footnote

قدمت هذه الدراسة بمناسبة تكريم د.محمد دحمان في يوم "ثلاثاء السوسيوولوجيا" المنعقد بكلية الآداب والعلوم-1  
الانسانية التابعة لجامعة ابن زهر بتاريخ 28 ماي 2013

## دراسة نقدية<sup>1</sup> وقراءة في كتاب محمد دحمان الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب

لكبير عطوف

كلية الآداب والعلوم الإنسانية  
جامعة ابن زهر- أكادير

تمهيد

نُشر الكتاب المعني بالدراسة بمطبعة كوثر برانت بالرباط سنة 2006، وهو يضم 385 صفحة. وقد قسم الباحث دراسته القيمة إلى ثلاثة فصول متباينة من حيث الحجم والمضمون: إذ خصص الباحث والأستاذ محمد دحمان الفصل الأول، الذي يحتوي على 58 صفحة، للترحال كنمط من أنماط العيش، أما الفصل الثاني فقد خُصص للترحال بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب ما قبل الاستقرار، ويضم 107 صفحات، وأخيرا عُنون الفصل الثالث والأخير بظهور مراكز الاستقرار وانعكاساتها السوسيو-اقتصادية على نمط العيش، وهو الفصل الذي يحتوي على 148 صفحة مستحوذا على حصة الأسد من الكتاب بحيث يناهز 39 في المائة من الحجم العام لهذه الدراسة التي أنهارها الباحث بخاتمة تهم حصيلة استنتاجاته، ثم قائمة المصادر والمراجع وأخيرا ملاحق مكونة من 21 صفحة. علما بأن هذه الدراسة التي نحن بصدد تقديمها وقراءتها هي في الأصل أطروحة جامعية لنيل دكتوراه السلك الثالث، نُوقشت سنة 1998 بجامعة محمد الخامس بالرباط.

وقد اعتمد الباحث محمد دحمان على مصادر ومراجع متنوعة وغزيرة سواء منها العربية أو الفرنسية، والتي تبقى الأكثر استعمالا، أو الانجليزية أو الإسبانية التي استعملت بحدّة أقل على المستوى العام. بيد أن تحليل وفذلك ذلك الرخم الهائل من الوثائق المدروسة كان في مستوى متطلبات وتطلعات البحث العلمي الرزين. ولم يكتف الباحث بالرجوع إلى الوثائق الكلاسيكية التاريخية وحسب ولكنه اعتمد أيضا على وثائق محلية ولكن الأهم من كل هذا هو

<sup>1</sup> - قدمت هذه الدراسة بمناسبة تكريم ذ. محمد دحمان في يوم "ثلاثاء السوسولوجيا" المنعقد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة ابن زهر، بتاريخ 28 ماي 2013.

البحث الميداني الذي قام به الباحث مُثَمَّنًا بذلك دراسته العلمية عبر تقنيات المقابلة والملاحظة التشاركية والرواية الشفوية التي بدونها لا يمكن للسوسيولوجيا وللتاريخ الاجتماعي المعاصرين أن يتقدما.

ولكن للأسف الشديد نسجل بأن المؤلف لم يضع القارئ في صورة وظروف وشروط البحث الميداني الذي نجهل كل شيء عنه ابتداءً من الزمان والمكان وظروف المقابلة وجدول المستجوبين والملحقات التي يجب توفرها حولهم، الخ. كل هذه المعطيات الضرورية غائبة للأسف في البحث المعني بالأمر والذي يبقى عملاً تاريخياً صرفاً أكثر منه عملاً سوسيولوجياً يحترم التقنيات المنهجية المتعارف عليها أكاديمياً.

ولكن هذه الدراسة، ورغم بعض نواقصها الأكاديمية العامة التي لا تنقص من قيمتها العلمية والمعرفية، فقد كُتبت بلغة سليمة، ورغم بعض الأخطاء اللغوية والإملائية القليلة، الشيء الذي يعطي للمتعدد رغبة جامحة في قراءة الكتاب الذي يذكرنا بأطروحة بول باسكون<sup>2</sup> رائد علم الاجتماع القروي المغربي بدون منازع والذي لعب الدور الأساس في مغربة علم الاجتماع. كما اعتبره أي بول باسكون أكثر علماء الاجتماع اهتماماً بالوثائق التاريخية.

من هذا المنطلق فالمنهجية والخطة التي اتبعها محمد دحمان هي نفسها تقريباً التي استعملها بول باسكون قبله وما نشرناه<sup>3</sup>. إنه لمن المنطقي أن نسطر بأنه لا يمكن كتابة التاريخ الاجتماعي المعاصر بدون الاستفادة، قدر الإمكان، من المناهج المستعملة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا. علماً أن الكتابات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية حينما يمر عليها زمن معين، 40 أو 50 سنة مثلاً، فهي تُصبح حتماً أحد روافد التاريخ الاجتماعي الذي لا يجف معينه والذي لا يزال في بداياته الأولى بعيداً عن تحقيق ذلك التراكم المادي والمعرفي الذي يخص تاريخ المغرب السياسي والعسكري المتمثل في تاريخ الملوك والسلطين

<sup>2</sup> - Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech. Histoire sociale et structures agraires*, Tanger, Editions Marocaines et Internationales, 1977, (693 p., plus 165 p., annexées).

حول هذا التقارب انظر:

<sup>3</sup> - *Migrations, représentations et sociologie rurale dans l'histoire du Maroc*, Agadir, Ed. Sous impression, 2012, pp. 87-107, (120 p.).

والأمراء والبلاطات على حساب "تاريخ من لا تاريخ له" أي تاريخ الناس البسطاء وتاريخ البني الذهنية والاجتماعية والاقتصادية.

## I. إشكالية البحث وغياب دراسة تركيبية وشمولية للمغرب الصحراوي

منذ الوهلة الأولى يبرر الباحث سبب اختياره للموضوع المدروس الذي يكمن أساسا في "غياب دراسات حول المنطقة، في ميدان السوسيولوجيا والانثروبولوجيا، أولت العناية للوثائق المحلية ولممارسات الفاعلين الاجتماعيين بعين المكان"<sup>4</sup> ولكن هذا الغياب ينطبق أيضا على مستوى التاريخ والتأريخ للصحراء الأطلنتية عموما أو ما نسميه بالمغرب الصحراوي الذي يفتقر حتى اليوم إلى دراسة تركيبية وشمولية بإمكانها أن تعطي لطلبتنا وللباحثين عامة فكرة واضحة المعالم ترصد أهم الحقب التاريخية التي صنعت تاريخ المغرب الصحراوي المعاصر.

فما هو موجود حتى الآن هو عبارة عن مونوغرافيات (monographie) إقليمية تدرس ما يسمى "بالصحراء الغربية" في إطار جغرافي محدد أو أحادي الجانب، دون وضعه في إطاره التاريخي العام الذي صنعه. وكمثال على ذلك نذكر: كتابات حول ما يسمى بـ"الصحراء الإسبانية"، "الساقية الحمراء" موريتانيا، كنفدرالية تكتة (Les Tekna)، أولاد دليم، أزكيبات، واد نون، واحة أسير (Asrir)، واحات باني، توات، تيندوف، كاؤ (Gao)، تئبوكتو (Tinbouctou) أو تئبوكتو (Tombouctou)، تاكانت (Tagant)، تيجيكجا (Tijikja)، الخ.

فكل هذه الدراسات المونوغرافية، ورغم أهميتها، فهي تبقى منغلقة على نفسها وعما يجري حولها وما يدور في فلك محيطها المؤثر حتما وبالتالي فهي تفتقر إلى ذلك الخيط الرابط للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية الديناميكية والبنوية التي مأسست للمغرب الصحراوي في إطار علاقاته الجدلية الإفريقية والأوربية التي لا يمكن فهمها لا ضمن ما يسميه منظر ومؤرخ مدرسة الحوليات (L'école des annales) الفرنسي المعروف فرناند بروديل (Fernand

<sup>4</sup> - محمد دحمان، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، الرباط، مطبعة كوثر برينت، 2006، ص. 12 (385 ص).

(<sup>5</sup>Braudel بتاريخ المدى الطويل (Histoire de la longue durée)).

ولعل كتاب محمد دحمان هذا يُغطي جانباً مهماً من الفراغ البليوغرافي الذي يهتم الصحراء الأطلنتية عموماً ويساهم كذلك وحتماً في سيرونة التراكم المعرفي العلمي الذي لايزال في بداية طريقه الصعب والشاق والذي لم يصل بعد إلى مستوى تراكم الدراسات الأسبانية والفرنسية بشقيه الكولونيالي وما بعد الكولونيالي.

وهناك سبب آخر دفع المؤلف لاختياره موضوع الدراسة التي نحن بصدد قراءتها ويكمن ذلك في كون محمد دحمان "ينتمي لميدان البحث" كما يكتب ذلك<sup>6</sup> وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار تنبيهات وتحذيرات عالم الاجتماع والمؤرخ جيرار نواغياي (<sup>7</sup>Gérard Noiriel) التي تفيد بأن هناك "خطر الانزلاق الذي يمكن أن يجر الباحث المنتمي لميدان البحث نحو الذاتية على حساب الموضوعية بحكم أن المسافة العلمية يمكنها أن تتقلص في حالة عدم تسلح الباحث بالأدوات المنهجية والاستمولوجية الضرورية" والتي بدونها لا يمكن لا للبحث ولا للباحث أن يجد لنفسه مكاناً أو مكانة مريحة تحت دفة شمس الربيع العلمي المحايد.

ورغم هذا فإن مسألة انتماء الباحث المؤلف لميدان الدراسة يعتبر إيجابياً على أكثر من مستوى، بل ومكّنه ذلك من فهم تمثيلات وعلاقات وسلوكات وميكانيزمات المجتمع الصحراوي، ولعل هذا ما مهد وعبد له الطريق لكي يطرح أهم الأسئلة الجوهرية لتحديد "خصائص الترحال الرعوي بمنطقتي الساقية

<sup>5</sup> - Voir notamment Fernand Braudel, *Ecrits sur l'histoire*, Ed. Flammarion, Paris, 1969, pp. 148-149 (314 p.) ; ainsi que du même auteur, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Paris, Ed. Arman Colin, 2 T., 1966, [T. 1 (628 p.) et T. 2 (533 p.)].

<sup>6</sup> - محمد دحمان، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مرجع سبق ذكره، ص12.

<sup>7</sup> - Cf. Gérard Noiriel, *Le creuset français, Histoire de l'immigration XIX<sup>e</sup> XX<sup>e</sup> siècle*, Ed. Seuil, pp. 244-245 (437 p.).

الحمراء ووادي الذهب على وجه الخصوص"<sup>8</sup>. وقد حاول الباحث جاهداً، وقد نجح في ذلك إلى أبعد الحدود، أن يفهم ويحلل عوامل الاستقرار بالمنطقة المدروسة، بل نجده قد تعدى ذلك إلى إيجاد أجوبة مقنعة لتفسير التحولات الاجتماعية والاقتصادية الطارئة على ظاهرة الاستقرار الحضري الصحراوي وانعكاساتها على البنيات الاجتماعية التقليدية وعلاقاتها بالدولة المركزية. مستنبطاً وراصداً لردود فعل البدو اتجاه هذه الظاهرة.

وتعتبر ظاهرة الاستقرار (la sédentarisation)، وهي "بيت القصيد بالنسبة لهذا البحث"<sup>9</sup>، كما يؤكد ذلك الباحث نفسه، نتيجة حتمية لعوامل بيئية وسياسية واقتصادية وأيديولوجية متشابكة ومتداخلة، أدت في نهاية المطاف إلى الاندماج الاجتماعي في الدولة الوطنية كهدف منشود ومقصود. ولكن من أجل فهم هذه الظاهرة الاجتماعية ومعالجتها كان من الضروري الرجوع إلى فترة البداوة والترحال التي سبقت مرحلة الاستقرار وظهور المدن في الوسط الصحراوي. وهذا ما يُحسب للباحث الذي حدّد وحصر "الفترة التي تغطيها هذه الدراسة في ما بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتسعينيات القرن العشرين"<sup>10</sup>. علماً بأن المؤلف قسم حقبة الزمنية المدروسة إلى ثلاثة مراحل، اعتبرها هامة، وهي: "مرحلة البداوة ما قبل الاستعمار الإسباني، ومرحلة الاستعمار ثم فترة الاستقلال وبروز مدن كبيرة وقيام السلطة المحلية وحضور الأجهزة الإدارية والقانونية والأمنية للدولة"<sup>11</sup>.

طبعاً لا معنى لتقديم كل النقط التي يتمحور حولها الكتاب، المتوفر في السوق على أية حال، ولكن الأهم هنا هو القيام بقراءة نقدية ودراسة متأنية لأهم الأفكار التي تعتبر الأساس في هذا الإطار.

## II. قراءة لبعض مضامين الكتاب/الدراسة من خلال الفصول الثلاثة

سنحاول أن نتبع التصميم نفسه، تقريباً، الذي رسمه الباحث الذي سهل

<sup>8</sup> - محمد دحمان، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مرجع سبق ذكره، ص12.

<sup>9</sup> - نفسه، ص13.

<sup>10</sup> - نفسه، ص14.

<sup>11</sup> - نفسه، ص14.

علينا قراءة الكتاب عبر اختياره لتصميم موضوعاتي سهل المنال بالنسبة للقارئ وهذا ما يحسب للمؤلف.

### الفصل الأول - الترحال كنمط من أنماط العيش

عالج المؤلف نقطتين هامتين وهما أصناف البداوة ثم الرعي الترحالي بمنطقة الصحراء.

#### أصناف البداوة

يحاول الكاتب في البداية أن يصنف ويحلل ظاهرة البداوة والترحال من خلال بعض المصادر والمراجع التي تطرقت للموضوع كابن منظور وابن خلدون، مستخلصاً بأنه "ليست هناك بدواة واحدة وإنما هناك بدوات كبداوة الجمع والالتقاط، بدواة الصيد، بدواة الرعي ثم بدواة الزراعة البدائية وكلها مرتبطة بالترحال وعدم الاستقرار في مكان ثابت طوال العام [...] أما الترحال فهو اصطلاح [le nomadisme] انطلق من واقع شمال إفريقيا إبان الاستعمار على يد الإداريين والجغرافيين الفرنسيين [...] والنتيجة هي أن السلوك الترحالي بهذا المعنى يعبر عن نمط عيش لا عن إثنيات أو شعوب. وهكذا تكون البداوة في مفهومها العام هي نمط الحياة القائم على التنقل الدائم للإنسان في طلب الرزق حول مراكز مؤقتة"<sup>12</sup>.

وقد استنتج الكاتب بأن كل التصنيفات التي تطرقت للمجتمع البدوي تربطه أولاً وقبل كل شيء بالبيئة التي تُحيل إلى الأطروحة الايكولوجية لتفسير نمط العيش (le mode de vie) وكذا التنظيمات الاجتماعية لدى الرحل.

بيد أنه لا يمكننا فهم "تشكّل الجماعات في الصحراء الغربية بدون الرجوع إلى الطريق التجاري، "طريق ملتونة" القديمة العابرة لمنطقة تيرس - زمور، وهنا نجد أنفسنا أمام عوامل أخرى كانت وراء التخصص في الرعي"<sup>13</sup> وبالتالي يجب أن نؤكد على نسبية البيئة أو الأطروحة الايكولوجية. هكذا إذن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار كل العلاقات الاجتماعية وكذا العوامل التي تدفع المجموعات الرُحلية إلى التفاعل مع الطوائف الطبيعية والسياسية والتكنولوجية، حتى

<sup>12</sup> - نفسه، ص. ص. 21-22.

<sup>13</sup> - نفسه، ص. ص. 28-29.



يتسنى لنا فهم كيفية تفاعل المجتمع الرعوي مع تدخل الدولة الشيء الذي يساعدنا على رصد أو سبر أغوار الاستراتيجيات المتبعة هنا وهناك.

ولعل كل هذه المعطيات تؤكد بالملاموس بأن المجتمع الرعوي ليس مجتمعا مغلقا ولكن العكس هو الحاصل إذ أن التفاعل والتأثير والتأثر بالعوامل الخارجية هو السائد في إطار علاقات جدلية محدودة في الزمان والمكان ومشروطة بالتحويلات والتغيرات المسترسلة واللانهاية. هكذا حاول الباحث محمد دحمان أن يحلل آثار التحويلات الطارئة على المجتمع الصحراوي من جراء تدخل الدولة:

"على مستوى التنظيم الإداري (تقسيم الصحراء المسترجعة إلى عمالات وجماعات حضرية وقروية) والاجتماعي (سلطة الأعيان، التعامل مع القبيلة، المراكز الاجتماعية، التعليم، الصحة...) والاقتصادي (شركة استخراج معدن الفوسفات، الصيد البحري، العمل المأجور، تهيئة مناطق صالحة للزراعة) الخ. [وهذا] ما سيمكننا من اكتشاف بعض جوانب ميكانيزمات التفاعل بين المجتمع العام (الدولة، المدينة والسوق) والمجتمع المحلي (التجمعات السكانية بالأقاليم الصحراوية من قبائل وأعيان وفئات اجتماعية)"<sup>14</sup>.

إضافة إلى هذه المستويات الأخيرة التي ناقشها المؤلف يجب أن نستحضر المجال الثقافي وعلاقاته بالقيم والتمثلات الجماعية (Les représentations collectives) والطقوس والتنظيم الاقتصادي والاجتماعي، فإذا ما أخذنا، مثلا، ظاهرة الجفاف بالمجتمع الصحراوي فإننا نلاحظ بأن السلوكات والممارسات والتصورات إزائه، لا تُفهم محليا كأنها ظاهرة طبيعية ولكنها تُدرك "كظاهرة يمكن للإنسان أن يؤثر فيها ذلك أن المجموعات الرعوية تستجيب لها بالأضحيان وبتدخل صانعي المطر عند رعاة المناطق الرعوية من إفريقيا الشرقية مثلا، أو الصلحاء في المجتمعات الصحراوية الإسلامية"<sup>15</sup>.

هكذا إذن نجد بأن هناك تداخل بين التصورات والتمثلات لدى المجتمعات الرعوية البدوية والاستراتيجيات المستعملة للسيطرة على المجال الطبيعي والتحكم فيه من جهة، وتفاعل هذه المجتمعات مع المعطيات الاقتصادية

<sup>14</sup> - نفسه، ص36.

<sup>15</sup> - نفسه، ص37.

والاجتماعية والسياسية والأيدولوجية المتمثلة في تدخل الدولة من جهة ثانية.

### الرعي الترحالي بمنطقة الصحراء

اهتمت فرنسا بدراسة الصحراء أكثر من غيرها لأنها كانت فعلا تمثل القوة الاستعمارية الوحيدة التي استحوذت على الجزء الأكبر منها وخاصة تلك الموجودة بإفريقيا التي كانت ولا زالت تمثل بعدا استراتيجيا قويا بالمنطقة. ونسجل كذلك بأن فرنسا الاستعمارية ركزت أساسا على دراسة<sup>16</sup> صحراء الجزائر ومالي وموريتانيا وتشاد وأهملت بالمقابل الصحراء المغربية الأطلسية، اللهم بعض الإشارات القليلة التي رصدت تحركات بعض القبائل التي لها امتدادات حدودية مغربية موريتانية جزائرية مالية، كما هو الشأن بالنسبة إلى الركيبات.

ولعل أهم دراسة تناولت المجتمعات الصحراوية، حسب المؤلف، هي تلك التي نشرت سنة 1959 في المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية حول "الرحل والترحال في المناطق الجافة" التي قدمها، جاك بيرك (Jacques Berque) الذي يستخلص بأن: "التطورات الحديثة مع وجود الإدارة الاستعمارية داخل المجتمع البدوي ودخول السيارات إلى الوسط الصحراوي وآثار التهدئة، نتجت عن ذلك اختلالات في البناء القبلي وفي وظائفه وفي التوازنات ما بين سكان الواحات والرحل"، يكتب مؤلف الكتاب<sup>17</sup>. وهنا يجب أن نفهم بأن المجتمع الصحراوي دخل في مسلسل استلابي واغترابي لا رجعة فيه، دفعه دفعا إلى تجاوز نمط العيش التقليدي والجري وراء السيولة النقدية والمجتمع الاستهلاكي الذي فجرته الثورة الصناعية بكل تبعاتها وتداعياتها المعروفة التي عجلت بضرورة الاستقرار. ولكن هذا التحليل يبقى واردا فقط بالنسبة للصحراء الجزائرية التي عرفت اكتشاف الغاز والبتروكوك عكس الصحراء المغربية التي حافظت على بناءها التقليدية في ظل الاستعمار الإسباني البدائي ولم تعرف الاستقرار إلا بعد الاستقلال.

<sup>16</sup> - نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر إنشاء "معهد الدراسات الصحراوية" بالجزائر و"المعهد الأساسي لإفريقيا السوداء الفرنسية" بالسنگال.

<sup>17</sup> - نفسه، ص 55.

ولعل تقديم وكتابات جاك بيرك<sup>18</sup> عامة تتميز بحيادها العلمي المرغوب فيه. وعليه لا أصنف كتابات جاك بيرك ضمن الكتابات الاستعمارية الكلاسيكية التي تختزل المجتمع المغربي، بما فيه سكان الجنوب بامتداداته الصحراوية، في القبيلة. والأدهى من هذا أن جاك بيرك وجه انتقادات لاذعة لتلك الكتابات الكولونيالية الأيديولوجية حين كتب متسائلا عن "ماهية القبيلة الشمال إفريقية"<sup>19</sup> (1953) ولعل السؤال هنا موجه أساسا إلى روبرت مونطان المنظر الأيديولوجي للمؤسسة الاستعمارية الفرنسية والذي لم يستطع تجاوزه للنظرية الانقسامية<sup>20</sup> في تحليل المجتمعات الإفريقية المُستعمرة.

وعموما نجد بأن الكتابات الاستعمارية، (في المرحلة الأولى، منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين)، سُخِّرت لغرض في نفس يعقوب، أي تسهيل التدخل الاستعماري وتبرير بل شرعنة المؤسسة الاستعمارية، وقد نعتت ووصفت هذه الكتابات الكولونيالية المجتمع الصحراوي بأنه مجتمع مُغلق وبدائي ومتوحش. أما المرحلة الثانية لتلك الكتابات، التي تزامنت مع نهاية الحرب العالمية الثانية "وتغلغل الاستعمار الفرنسي والاسباني إلى قلب المجتمع البدوي"<sup>21</sup> الصحراوي، تميزت بوصف الواقع الاجتماعي والجرد الدقيق للخيرات والمؤهلات الطبيعية والبشرية والإستراتيجية. أما المرحلة الثالثة لهذه الكتابات التي صادفت اكتشاف الفوسفاط بالمنطقة وظهور "معمل تكريره بعيون الشاطئ وتوالي فترات الجفاف التي دفعت الرحل نحو مراكز الاستقرار بحثا عن أسباب العيش، ثم ظهور فئات العمال والمدن وبروز وعي اجتماعي، وبالتالي دخول المنطقة في مرحلة اضطراب سياسي انطلاقا من مظاهرات العيون في يونيو سنة 1970 ضد المعمر الاسباني مطالبة بالاستقلال، حيث ستميز

<sup>18</sup> - Jacques Berque, *Structures sociales du Haut Atlas*, Paris, PUF, (Travaux du centre d'études sociologiques), 1955, (451 p.) ; et du même auteur, *Mémoires des deux rives* (une sorte de biographie), Le Seuil (édition complétée) 1990.

<sup>19</sup> - Jacques Berque, Qu'est-ce qu'une tribu nord-africaine ? *Hommage à Lucien Febvre*, Paris, Éd. Colin, 1953.

<sup>20</sup> - Cf. L'article de Ben Salem Lilia, *Intérêt des analyses en termes de segmentarité pour l'étude des sociétés du Maghreb*, In: Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, Paris, N°33, 1982. pp. 113-135.

<sup>21</sup> - نفسه، ص71.

الكتابات في هذه المرحلة بطابعها السياسي في الغالب، والبعض القليل بالطابع الاقتصادي كالاهتمام بالمنطقة من حيث الموقع الجيو-سياسي وكقضية مطروحة على المنتظم الدولي<sup>22</sup>.

وبعد ذلك يمكن أن نذكر بعض الكتابات الأيديولوجية المنحازة إلى جبهة البوليساريو اللهم إذا استثنينا تجاوزا أطروحة الباحثة الفرنسية صوفي كراتيني (وهو في جزئين<sup>23</sup>) التي همت تاريخ قبيلة الركييات (1610-1934) "في جزءها الشرقي المتواجد في أراضي شمال موريتانيا الشرقي ومنطقة تندوف".

حول الفصل الأول، يستنتج المؤلف بأن الترحال والبداءة هما أولا وقبل كل شيء نمط عيش إنساني لا يقتصر فقط على الرعي الترحالي وإن يشمل بالضرورة وحسب الظروف عدة أنشطة "كالقنص والقطف والزراعات الظرفية والصيد التقليدي" وما إلى ذلك من تجارة بعيدة المدى إن اقتضى الحال. ولدراسة المجتمع البدوي الصحراوي لابد من نظرة شمولية تعتني بالرحل وعلاقاتهم المعقدة مع البيئة الطبيعية والاجتماعية ثم مع السلطة المركزية والعوالم الخارجية دون نسيان التصورات الإستراتيجية والتمثلات الجماعية الذهنية والثقافية.

## الفصل الثاني - الترحال بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب ما قبل الاستقرار

تطرق الباحث في هذا الفصل إلى أربع نقاط تحيل على: الرعي، القبيلة والمراتب الاجتماعية في فترة الترحال، الأسرة وتقسيم العمل، سياسة التغلغل الاستعماري وردود فعل المجتمع البدوي.

### الرعي

عموما يمكن أن نجزم بأن نمط الحياة الترحالية الرعوية القائم أساسا على تربية الإبل والماعز والغنم هو الذي كان سائدا بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، أضف إلى هذا بعض الزراعات الظرفية الشحيحة وكذا القنص والقطف والصيد البحري المعتمد على تقنيات بدائية وأساليب عتيقة. وغالبا ما تنطلق

<sup>22</sup> - نفسه، ص.ص. 71-72.

<sup>23</sup> - Sophie Caratini, *Les Rgaybat 1610-1934*, 2 tomes, Paris, L'Harmattan, 1989.

التنقلات الترحالية "من الشمال (الساقية الحمراء، وادي درعة) إلى الجنوب (وادي الذهب، أدرار التمر، تكانت...) ثم [هناك] اتجاه آخر للترحال من منطقة الحنك وأركشاش الذرعاوات إلى ناحية تندوف وكتلة زمور [...] كما نجد تنقلا رعويا آخر يكون في فترة نضج التمور بمنطقة أدرار التمر حيث تتجمع القبائل الرحالة فترة الصيف لجني التمور أو شرائها وجلبها لمضارب البدو [...] و هناك مجموعات اجتماعية أخرى يكون اتجاهها نحو واحات وادي نون (كلميم، لقصابي، أزيويلة، أسير...) بل يصعدون شمالا حتى جبال سوس بالأطلس الصغير بحثا عن المراعي واقتناء البضائع وجني ثمار شجر التين الهندي"<sup>24</sup>.

في الواقع لم يكن الترحال الرعوي بالساقية الحمراء ووادي الذهب خاضعا لحدود معينة بحيث كان البدو يتنقلون بحثا عن الماء والعشب من منطقة إلى أخرى بين موريتانيا ووادي الذهب حتى الجنوب الغربي الجزائري ومن وادي الساقية الحمراء إلى سوس ومن تيرس إلى تكانت فأرض الكبله المحاذية لنهر السنغال. ولكن الاستعمار هو الذي قسم المنطقة ووضع بالتالي حدودا سياسية زعزعت بوصلة المجتمع الرعوي بالصحراء الذي عرف عدة تحولات لاحقة سواء على المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي أو السياسي والأيدولوجي.

### القبيلة والمراتب الاجتماعية في فترة الترحال

حاول الباحث هنا رصد أهم خصائص الواقع القبلي الاجتماعي لسكانة الساقية الحمراء ووادي الذهب في فترة الترحال، معتمدا في ذلك على أهم المصادر وخاصة منها العربية كالمؤرخ "المختار بن حامدون"<sup>25</sup> الذي قدم مصدرا مهما عن طبيعة التنشئة الاجتماعية القبلية الصحراوية وهو يرجع في ذلك إلى العلامة ابن خلدون والمؤرخين والإخباريين المنتمين لتراب "البيضان" وكذا الرحالة العرب الذين زاروا المنطقة، إذ ميز ثلاث مجموعات متباينة:

- "قسم ذو شوكة وسلاح يسمون العرب وهم بنو حسان ومن سار سيرتهم من أحفاد المرابطين أو غيرهم".

<sup>24</sup> - نفسه، ص 81.

<sup>25</sup> - نفسه، ص. ص. 90-91.

- "قسم يقومون بالخطط الدينية من تعلم وتعليم وقضاء وفتوى وهم الزوايا".  
 - "وقسم غارمون يقومون بالصنائع والحرف ووجوه المعاش وهم اللحمية تشبيها بلحمية الثوب".

"ويضاف إلى هذه الأقسام الثلاثة: فئات تحترف بالفن الموسيقي وأخرى تحترف الحدادة والنجارة وتحترف نساؤهم بالخرازة والصباغة وهم الصناع والمعلمون. وترى المصادر أن التقسيم الثلاثي للمجتمع الصحراوي إلى "عرب" (أهل شوكة، يمارسون السلطة السياسية وزوايا (أهل علم وتعليم) ولحمية (مشتغلون بالرعي) إنما يعود إلى إجراء تنظيمي اتخذهُ أبو بكر بن عمر المرابطي بتسريح طائفة من جيش الفاتحين ليتفقهوا في الدين وأخرى لتسعى في تحصيل معاش الجميع مع الإبقاء على نخبة من المقاتلين في حالة تأهب دائم"<sup>26</sup>.

تختلف الدراسات حول الأصول الاجتماعية للمجموعات الرعوية الصحراوية للمنطقة المدروسة لكنها تتفق على الوجود الصّنهاجي واللمتوني بالصحراء ثم هجرات القبائل العربية الشيء الذي ترتب عنه وجود تقسيم وظيفي يحتل فيه "أهل مُدافع" (أي حملة السلاح) وأهل لكتوب (أي الزوايا) المرتبة الأولى كـ"ترابّية قبلية في مقابل ترابّية فردية تضم بالأساس فئات التابعين والعبيد والحراطين وإكاون ومُعلمين. إلا أن فئة إكاون (الفئة التي تقوم بدور التهريج والغناء والطرب) غير موجودة بمنطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب، وتوجد بأرض الكبلّة وموريتانيا الحالية"<sup>27</sup>، يوضح المؤلّف.

بعد ذلك قدم الباحث مُشجرات نسب بعض القبائل الصحراوية كقبيلة أولاد دليم<sup>28</sup> ثم تطرق بعدها إلى إحصاء القبائل التي تشكل اليوم أهم المجموعات المكونة لسكانة الساقية الحمراء ووادي الذهب<sup>29</sup>، والتي تصل إلى ستة وعشرين قبيلة. والقبيلة الصحراوية ما قبل الاستعمار كانت عبارة عن ظاهرة اجتماعية واستراتيجية تتطور وتتقوى أو تضعف وتتلاشى حسب ميزان القوى والظروف

<sup>26</sup> - نفسه، ص 91، بتصرف طفيف.

<sup>27</sup> - نفسه، ص 93.

<sup>28</sup> - نفسه، ص. ص. 103-116.

<sup>29</sup> - نفسه، ص 123.

## الايكولوجية و السياسية والتاريخية.

هكذا إذن تكونت أهم الفئات الاجتماعية بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب التي طبعت المرحلة لما قبل استعمارية، علما أن التقسيم الوظيفي التراتبي غير قار وبالتالي يخضع بين الفينة والأخرى لعدة تغيرات في المراتب الاجتماعية. هكذا فالحدود المادية والاجتماعية بين المحاربين والزوايا هي أيديولوجية ورمزية بالأساس، وهي نسبية أيضا، إذ نجد أن الكثير من الزوايا حملوا السلاح من أجل الجهاد كأهل الشيخ ماء العينين على سبيل المثال لا الحصر.

## الأسرة وتقسيم العمل

لم تهتم المصادر المحلية والعربية والأجنبية بمؤسسة الأسرة الصحراوية بالمنطقة المدروسة طيلة فترة ما قبل الاستعمار، هذا ويجب أن ننتظر تغلغل الاستعمار بالصحراء من أجل الحصول على بعض المعطيات التي تطرقت للموضوع.

ولعل البداية لتكوين كل أسرة كمؤسسة اجتماعية هي "الزواج من خلال عقد مذهب الإمام مالك حسب صاحب الوسيط"<sup>30</sup>. وقد حاول المؤلف أن يصف لنا مراحل المصاهرة وطقوس الزواج الصحراوي الذي يعطي أهمية قصوى لتبعية الأفراد المتزوجين إلى آبائهم وبالتالي إلى القبيلة الأم من أجل تقوية هذه الأخيرة.

ولكل أسرة خصائصها ووظائفها حسب تراتبيتها وهرمها الاجتماعي القابل لإعادة الإنتاج بطريقة تكاد تكون ميكانيكية. "ولا تتجلى الضغوطات الأسرية وأدوارها في حدث الزواج فقط، بل تتجلى كذلك في كون الأسر المنحدرة من حسان والزوايا هي المتحكممة في الرأسمال الرعوي، ووسائل الإنتاج الاقتصادي من إبل وغنم وبنادق، وهي التي تملك حق التصرف والبيع والشراء وبذلك أمكنهم تجاوز الوسط الترحالي إلى آفاق أخرى، كوادي نون ومراكش والسودان والحجاز ومصر، بخلاف الأسر التابعة والحدادين [وباقى الحرفيين والحراطين] الذين بقوا [...] يعانون مصاعب خدمة الذات وخدمة الغير والقطيع وكذا

<sup>30</sup> - نفسه، ص148.

الارض".

نلاحظ بأن كل فرد من أفراد العائلة الواحدة له دوره الخاص به داخل المجتمع البدوي الصحراوي في فترة الترحال وذلك منذ صغر سنه، فالطفل الذكر منذ صغره يرعى صغار الماعز والإبل والطفلة تعمل في البيت حتى زواجها المبكر وهكذا دواليك، وحين تصبح أما فهي تكون قادرة على إعادة إنتاج العادات والتقاليد التي تلقنتها في وسطها الأسري بحيث تكون بمثابة "ذاكرة المجتمع الأبوي السلطوي"<sup>31</sup> على حد تعبير المؤلف. هكذا إذن تكون الأسرة البدوية عبارة عن وحدة إنتاج وإعادة إنتاج اجتماعي وبيولوجي يفترض تقسيما للعمل اللامتكافئ بين الفئات الاجتماعية.

### سياسة التغلغل الاستعماري وردود فعل المجتمع البدوي

عرف التسرب الاستعماري للمنطقة المدروسة مداه منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر ونحن نعرف بأن الاسبان لم يحصلوا على موافقة فرنسا إلا سنة 1904 وأن الحماية الاسبانية كانت رسمية منذ 1912 أما الاحتلال الحقيقي فلم يكن إلا سنوات 1934-1936.

ولعل السؤال المطروح هنا هو "كيف كانت ردود فعل المجتمع البدوي الصحراوي بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب؟ يجيب المؤلف على هذا السؤال عبر مسألة "الجهاد" كخيار أول ثم عبر "نمط العيش" كخيار غير مباشر.

### رد الفعل المباشر: الجهاد

كان من الطبيعي، في بداية الأمر، أن تكون بعض ردود الفعل الجهادية غير منتظمة نظرا لغياب السلطة المركزية والنزعات القبلية المحلية، ولكن الأمور تغيرت ابتداء من سنة 1902، "بعد إتمام الشيخ ماء العينين لبناء حصن وزاوية السمارة [...]" ثم بداية الجهاد في الشمال والجنوب بتحريض من ماء العينين وأبنائه الذين وزعهم على مناطق تراب البيضان لتأجيج غضب الأهالي ضدا على الاستعمار، [...] وكان ماء العينين مدعوما من طرف السلطان ماديا ومعنويا، هو

<sup>31</sup> - نفسه، ص 154.



وقائد منطقة وادي نون<sup>32</sup>.

وفي إطار هذه الحركية الجهادية الرسمية التي خلقها ماء العينين وأبناءه تحركت المجموعات القبلية كل واحدة في مجال ترحالها ضد المستعمرين الاسبان والفرنسيين على السواء، وفي مقدمتهم محاري أولاد دليم أولاد أبي السباع، الركييات، أولاد اللب، أزركين، الخ. وقد تزامنت فترة التغلغل الاستعماري مع الجفاف الشيء الذي قلص الموارد الطبيعية ورؤوس المواشي على السواء، وأوقف التجارة العابرة للصحراء زيادة على الحصار الاقتصادي المفروض من لدن المستعمرين. ورغم كل هذه العوامل السلبية يجب أن نسجل بأن المقاومة الشعبية الصحراوية، بغض النظر على عتاها وأسلحتها المتواضعة، فقد حققت انتصارات بطولية ضد المستعمر، يشهد لها التاريخ بذلك.

يمكن قراءة الجهاد بمثابة رد فعل مباشر كانت وراءه دوافع اقتصادية تتمثل في الدفاع عن نمط العيش الرعوي الترحالي الذي يرفض الحدود السياسية، كما أن دوافعه وطنية وهوياتية أيضا.

لم يبق لنا في آخر هذه النقطة إلا معرفة ردود الفعل غير المباشرة للمجتمع البدوي اتجاه المستعمر.

### رد الفعل غير المباشر

كان الرحل والرعاة البدو بفضل معرفتهم بالأرض ومسالكتها يحاولون دائما تجنب ملاقات جيوش المراقبة الشيء الذي دفع الاسبان إلى توظيف الكثير من أهالي المنطقة في المؤسسة العسكرية قصد تسهيل مراقبة المجتمع الصحراوي ككل، هكذا نجد بأن الآلاف منهم سيشاركون في الحرب الأهلية الاسبانية ضد الجمهورية الاسبانية لصالح فرانكو سنوات 1936-1939. "ومن ردود فعل البدوي غير المباشرة بروز صلحاء ذوي تأثير قوي [...] سكنوا الفيافي وكان لهم تأثير على الرحل فيما بعد أثناء قيام حركة جيش التحرير كالشيخ الولي، بوادي الذهب، والشيخ محمد الأغظف، وبدبد ولد الشيخ محمد المامي والفقيه الليلي بالساقية الحمراء"<sup>33</sup>.

<sup>32</sup> - نفسه، ص165.

<sup>33</sup> - نفسه، ص173.

وقد هاجرت عدة شخصيات ومجموعات اجتماعية من المنطقة إلى داخل المغرب كغالبية أبناء الشيخ ماء العينين وعناصر أخرى من مختلف القبائل فارة من مخلفات الاستعمار وهذه الهجرة هي نوع من أنواع المقاومة كذلك. ومنذ سنوات 1957-1958 عرفت الصحراء الإسبانية تحولات مهمة، على الصعيد الاقتصادي والحيو-سياسي، كانت نتائجها المباشرة تسليم طرفاية للمغرب وتبني مدريد لسياسة تنمية "وتكوين" جيش التحرير" الذي انضمت إليه كُتلة والركبيات"<sup>34</sup>. وقد شاركت معظم القبائل في عدة معارك ضارية ضد المراكز الإسبانية المتحالفة مع فرنسا الاستعمارية التي استعملت وسائل وعتاد حربي عصري فتاك ضد القبائل الصحراوية.

كان من نتائج هذه المواجهات اللامتكافئة تدمير أجهزة جيش التحرير اللوجيستكية وتهديم البنيات التقليدية الصحراوية وانهايار وتقلص الموارد الطبيعية والرعوية واندثار أو قلة المواد الغذائية، الشيء الذي انعكس على الترحال وعلى الساكنة المستقرة بالمنطقة وبالتالي هذا ما شجع على الهجرة إلى الشمال: وادي نون، طنطان، طرفاية، أكادير، الدار البيضاء، الرباط، الخ.

إن التحولات الاجتماعية الحاصلة زمن الفترة الاستعمارية ظلت محصورة في مجالات ضيقة ولم تمس بالتالي أعماق البنيات القبلية الصحراوية التقليدية المتجذرة في الأذهان الواعية واللاواعية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجب أن نطرح التساؤل الذي بإمكانه أن يجرنا إلى معرفة الثابت والمتحول في نمط العيش البدوي الصحراوي وعلاقات ذلك بمفهوم الدولة المركزية بمفهومها الواسع الذي يُحيل حتما إلى تنظيم الاستقرار في المدينة وما يتطلبه ذلك من ضبط ومراقبة للأرض ومن عليها.

### الفصل الثالث - ظهور مراكز الاستقرار وانعكاساتها السوسيو-اقتصادية على نمط العيش

لن نطيل في هذا الفصل بحكم عدة اعتبارات، نذكر من بينها على الخصوص بأن المعطيات المقدمة في الكتاب، ولو أنها ذات قيمة سوسيولوجية وتاريخية لا تُنكر، فهي الآن في حاجة ماسة إلى تحيين عام عبر (بعض المعطيات ترجع إلى

<sup>34</sup> - نفسه، ص 179.

سنوات (1980) عشرات المنشورات التي رأت النور خلال سنوات 2010-2013. زيادة على هذا أذكر خاصة أن المعطيات المغنية معروفة من "طرف الجغرافيين"<sup>35</sup> وعلماء الاجتماع، بل هناك تشابه في بعض المشاكل التي تعيشها بعض الأسر الصحراوية مقارنة مع أسر مغرب الشمال.

ومهما يكن الأمر، فقد تزامن جلاء الاستعمار الإسباني عن الصحراء مع جفاف حاد شمل كل مناطق الساحل الإفريقي التي تعرضت لزحف الرمال القوي الذي أثر بشكل بليغ على تقليص رؤوس الماشية وهجرة السكان نحو جنوب موريتانيا ووادي نون وسوس وغيرها، ومن البدو الرعاة من التحق بمتطوعي "المسيرة الخضراء" أو غادروا المنطقة نحو جنوب غرب الجزائر حيث انضموا "لجبهة البوليساريو". كل هذه التحولات والتغيرات السكانية والهجرية الطارئة خلخلت البنيات الاجتماعية والاقتصادية والديمقراطية والعلاقات القبلية بالوسط الصحراوي الذي تطلب، أكثر من وقت مضى، تدخل الدولة من أجل مراقبة المجال الوطني وضبط سكانه إداريا واجتماعيا وسياسيا.

### حضور الدولة

كان أول شيء قامت به الدولة المغربية هو تنظيم المجال الإداري وذلك بتقسيم المنطقة إلى أربعة أقاليم وهي: إقليم بوجدور وإقليم السمارة وإقليم وادي الذهب وإقليم العيون. "وتجلى تدخل الدولة الوطنية في المنطقة، في تبني سياسة تنموية مُستعجلة عينت بموجبها وزارة متخصصة: "الوزارة المنتدبة لدى الوزير الأول المكلفة بتنمية الأقاليم الصحراوية"، حيث بدأ الاهتمام بخلق بنيات تحتية بالمنطقة كإحداث ميناء العيون الشاطئ، والطرفاية، ومشروع ميناء الداخلة، والطرق المعبدة التي ربطت مختلف جهات المنطقة حتى التخوم الموريتانية، وكهربة كل المراكز الموجودة بالمنطقة الحضرية والقروية وإنشاء مطار دولي بالعيون [...] وجلب الماء الشروب إلى كل تلك المدن والقرى، وإقامة تجارب زراعية ورعوية، والاستثمار في مجال الصيد البحري والعقار

<sup>35</sup>- Voir à ce propos: Mohamed Ben Attou et Ahmed Belkadi, *Sidi Ifni, Ait Baamrane: de la marginalisation à la construction territoriale*, Agadir, Éd. BJ Print-Agadir, (175 p.).

وتربية الماشية<sup>36</sup>.

كما قامت الدولة بدعم المواد الغذائية الأساس من أجل تشجيع المجتمع الصحراوي على الاستقرار وتسهيل عمليات الاندماج عبر "خلق نخب منبثقة عن القبائل والمجموعات ذات المكانة والحظوة في الوسط الصحراوي [...] دعمتهم الدولة بالامتيازات الإدارية والسياسية"<sup>37</sup>. ولكن هذه السياسة المبنية على أخلاقيات مشبوهة وعدم الاستحقاق وانعدام تكافؤ الفرص وخلق علاقات زبونية في إطار نظام الريع - الذي استفادت منه بالأساس نخبة عسكرية محدودة - أبانت عن فشلها الذريع منذ مأسستها مع الوزير السابق ادريس البصري. وللأسف الشديد لم يتطرق المؤلف لهذه النقطة الحساسة التي لم تل حظها حتى الآن من الدراسة التي تستحقها.

نقرأ في الكتاب موضوع الدراسة بأن عدد سكان الأقاليم الصحراوية بلغ حسب "الإحصاء العام الذي نُظم سنة 1994: 252146 نسمة"، في حين أن هذا العدد لم يكن يتجاوز "24550 فردا سنة 1959 خلال الإحصاء الإسباني"<sup>38</sup> آنذاك. وهذا يعني أن الدولة الوطنية نجحت في سياستها الهادفة إلى استقرار واندماج مجتمع المغرب الصحراوي الذي تضاعف أكثر من 10 مرات، ولكن ثمن ذلك كان ولا يزال ثمنا باهظا ومُكلفا على كل المستويات.

ومما يُأسف له أيضا هو أن الكتاب لا يتضمن معطيات ديموغرافية كمية وكيفية (من الصعب الحصول عليها) حول المهاجرين المستقرين بالصحراء المغربية وخاصة منهم أولئك الآتين من الشمال المغربي أو من موريتانيا.

## مصالح الدولة بالأقاليم المسترجعة

استهل المؤلف هذه النقطة بتقديم نماذج لمصالح الدولة بالأقاليم الصحراوية المغربية والمتمثلة في قطاعات التعليم والصحة العمومية والإنعاش الوطني والفلاحة وتربية الماشية. كل هذه القطاعات الحيوية درسها الكاتب عبر معطيات وصفية هامة كمّا وكيفًا.

<sup>36</sup> - نفسه، ص 197.<sup>37</sup> - نفسه، ص 202.<sup>38</sup> - نفسه، ص.ص. 201-204.

ولعل أهم ما جاء به هذا الفصل من وجهة نظرنا المتواضعة، هو التسطير على مسألة مهمة تتجلى في كون الدولة أخذت بعين الاعتبار ذلك الترتيب الاجتماعي التقليدي الذي كان سائدا قبل الاستعمار - وحتى قبل الاستقلال - وبالتالي تم إعادة إنتاج ما سَمَّاه المؤلف محمد دحمان بـ "النخب التقليدية" (من محاربين ومسؤولين عن الشأن الديني (زوايا) وُصْلحاء وأولياء وشيوخ القبائل، الخ.) التي تقلدت أهم المناصب الإدارية والسياسية السامية بالمنطقة، وبقيت الفئات التابعة أصلاً، في وضعيتها الاجتماعية السابقة تربطها علاقات الولاء والتبعية لهذه النخب التقليدية الجديدة. هذه الأخيرة التي تتحكم وإلى أبعد الحدود في وسائل الإنتاج المُحدثة (كالإدارة والمقاولات ومناصب الشغل) وكذا في كل المساعدات التي ترصدها الدولة للمنطقة، وبهذا استطاعت هذه النخب الجديدة أن تسيطر على السلطة الاقتصادية عبر السلطة السياسية.

هكذا يؤرخ كتاب محمد دحمان لانهايار المراتب الاجتماعية التقليدية الصحراوية بعد تفكيك علاقاتها الاجتماعية وفذلكة أساسها الاقتصادي الرعوي وبالتالي تغير نمط عيشها الذي عانى كثيرا من ظاهرة الاستلاب والاجتثاث في وسط استهلاكي مفروض عبر العمل المأجور والسيولة النقدية والتواصل العصري والتكنولوجيا الحديثة وسلوكات المدينة والدولة المركزية.

### الأسرة ومنطق التغير الاجتماعي

تغيرت العلاقات الأسرية ولم تعد مبنية على مسألة القرابة والانتماء القبلي الضيق فحصلت هناك تحولات على أكثر من مستوى ابتداءً بمستوى ملكية القبيلة التي كانت تتجسد في أهمية القطيع واستراتيجيات الحفاظ على الثروة داخل العائلة نفسها، إذ صارت الثروة اليوم تتمثل أساساً في الحصول على وظيفة عمومية أو في القطاع الخاص.

ومن نتائج هذه التحولات الأسرية نذكر بأن بعض الشباب غير المتزوج أصبح مستقلاً بذاته يعيش بمعزل عن الأسرة الأم "بخلاف الماضي حيث كانت العائلة والقبيلة تفرضان حصاراً على الشباب"<sup>39</sup>، الشيء الذي خلق نوعاً من التوتر وصراع بين الأجيال أثر على التحصيل الدراسي وبالتالي ارتفاع نسبة الرسوب

<sup>39</sup> - نفسه، ص. 267.

والتوقف عن متابعة الدراسة. ولعل المثير في هذا المضمار هو أن هذه المشاكل التي يعيشها الشباب الصحراوي هي نفسها التي يتخبط فيها شباب شمال المغرب، وهنا لا بد من دراسة مقارنة بإمكانها أن تؤكد أو تفند هذه المعطيات. وأصبحت المرأة البدوية بالأمس المستقرة في مدن اليوم تضطلع بمسؤوليات مختلفة فتمارس التجارة وتتمدرس وتُصبح عضوة فاعلة في المؤسسات العمومية أو الخاصة وما إلى ذلك.

لقد غيرت المدينة من "مفهوم العمل المهني التقليدي" إذ دفعت سيورة التحضر والمجتمع الاستهلاكي بالآلاف الصحراويين إلى الجري وراء السيولة النقدية والعمل المأجور مما جعل هؤلاء يتشبّعون بروح الفردانية ويستوعبون "مفهوم البطالة الذي لم يكن واردا في القاموس المحلي"<sup>40</sup>.

### الرعي في الوقت الحاضر

استفاد الرعي من اندماج المنطقة الصحراوية في نسيج الاقتصاد الوطني والدخول في اقتصاد السوق، وذلك عبر اكتساب "ثقافة جديدة" تتمثل في حفر الآبار والاتصال الدائم بمصالح الفلاحة والمياه والغابات وتوظيف يد عاملة خاصة بالمسارح ورعي قطعان الماشية (ماعز إوبل وبقر دخیل على المنطقة) إضافة إلى الخبرات التقليدية المحلية.

### على سبيل الختم

كانت أهم الأنشطة الاقتصادية السائدة في فترة الترحال تتمحور حول الرعي وتربية الماشية علما بأن العلاقات الاجتماعية كانت تتسم بالتبعية والولاء والتبني بل والرق أحيانا. لكن هذه الوضعية بدأت تتغير مع دخول الاستعمار إلى المنطقة إذ وجد البدو أنفسهم داخل حدود مرسومة سلفاً هدّدت وخذتهم القبلية التقليدية، بيد أن هذا التغير كان نسبيا فعلا بحيث يجب انتظار مرحلة الاستقلال من أجل معاصرة أهم التحولات الجذرية العميقة.

هكذا إذن يمكن التأكيد على كون الدولة الوطنية، بمؤسساتها وأجهزتها الإدارية والتنظيمية والبشرية واللوجستية والتكوينية والأمنية والقانونية

<sup>40</sup> - نفسه، ص329.

ومشاريعها التنموية أثبتت قدرتها وفعاليتها على فرض تحولات هائلة أدت إلى الاستقرار الفعلي. وهنا وجد بدوي الأمس نفسه اليوم محاطا بسلطات وأجهزة الدولة التي لا تنام فارضة عليه قيودا وواجبات والتزامات مقابل حقوق تنموية واجتماعية واقتصادية.